خصائص الفن الاسلامي

-٢-

لريتشارد إتنجهاوزن[1]

سار التمويه في أشكال الزخارف جنباً إلى جنب مع مميزات الفن الاسلامي وهو اظهار الأشياء في غير حقيقتها أو عكسها فتظهر إما متداخلة أو تحور الحيوانات إلى زهور أو إلى فروع نباتية ملتوية (أرابسك) أو تظهر الخطوط الهندسية الدائرية مستقيمة أو العكس ، فمثلاً العقاب المرسوم على صحن من الخزف والمحفوظ في متحف اللوفر لا يظهر على شكل حيوان منبسط ذو بريق معدني فحسب بل ترى هذا الحيوان تحوّل ذيله إلى شكل نباتي ينتهي بأرابسك ويتسلسل من منقاره فرع نباتي . ومن أهم التحف المميزة للفن الاسلامي ذلك الطبق المشهور بنمره الذي اكتشفه العلامة هرتسفلد في سمرّا فلا يظهر الطائر مجرداً أو مطليًا ببريق معدني وإنما يتحوّل في بعض أجزائه إلى شكل نباتي على أرضية عميقة . وفي هذا المثل يصير الرسم شكليًا . وإذا قلب إلى أعلى اتخذ شكل ورقة نباتية كبيرة مسننة محوّرة ، وتذكرنا هذه الظاهرة بالحالة التي كان عليها التصوير الفوتوغرافي وذلك من سؤال وجهه أحد المصورين الفرس إلى الفقيه ابن عباس عام ٦٨ هـ وقد عاش هذا المصوّر في وقت لم يكن التعصب نحو تحريم التصوير ظاهر فيه فقال أيمسك الأفنان عن رسم الحيوان ، وكيف يحصل على معاشه إن أمسك ؟ فأجابه ابن عباس أنه يستطيع أن يرسم الحيوان بعد قطع رءوسها وتحويرها تحويراً نباتيًا — وفي دار الآثار العربية قطعة من الخشب الفاطمي حفر عليها رسم حصانين على شكل أرابسك (شكل ١) ، وهناك آلاف

---

(١) مترجم من كتاب الادب العربي لفيليب حتي وآخرين طبع مطبعة جامعة برنستون بنيوجرسي سنة ١٩٤٤

الأشكال التي تحورت فيها الرسوم الهندسية المستقيمة إلى خطوط دائرية بشكل مذهل.

وهناك رسوم لوحدات زخرفية مستقلة يمكن أن يكون كلٌّ منها شكلاً تاماً بذاته لكن الفنان المسلم يمكن أن يستغل هذه الوحدة الزخرفية، فأعاد رسمها بجوار بعضها بشكل غير محدود وهذا التكرار أدّى إلى أهم ميزات الفن الاسلامي ومنها رسوم الأرابسك الغير متناهية (شكل ٢) والأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع وينتمي إلى هذه المجموعة الخيرانات السلجوقية، المتتابعة على أرضية نباتية لا نهاية ولا بداية لها، وتوجد خاصة أخرى في أمثلة كثيرة وهي ظهور الجامات على جلود الكتب والسجاجيد وتدل أرباع الجامة أو المنطقة المرسومة في الأركان سواء أكانت شبيهة أو غير شبيهة بالمنطقة الوسطى أنه كان يمكن رسمها في كل اتجاه لولا أن الأطار الخارجي حدد الجزء المطلوب رسمه منها.

* * *

أدّت احدى نتائج البحوث في الفن الاسلامي إلى محاولة الفنانين رسم الكائنات الحية ذات الأبعاد الثلاثة بطريقة غير واقعية. وكان استعمال البريق المعدني ظاهرة واضحة في هذا الميدان. ووجدت طرق أخرى لاظهار الشيء على غير حقيقته. وقد أشار العالم هاسينو إلى أهمية هذه الظاهرة في الفن الاسلامي الذي امتاز بالتغير الدائم حيث لا دائم إلاّ الله ولا يتحقق دوام الله إلاّ بتغير الأشياء. وتدلنا قصة سيدنا ابراهيم على كيفية استدلاله على وجود الله ودوامه عندما رأى النجوم والشمس والقمر في تغير دائم — وهذا أول دليل على بقاء الله؛ ويمثل هذا الاعتقاد في الدين الاسلامي والفن معاً. والدليل الحي على ذلك ما نجده على شواهد القبور وفي ضريح العازي الكبير تصور في ضريح الكتابة الكوفية الرئيسي كلمة «الله الباقي».

ونجد أثر هذه الظاهرة في استخدام بعض المواد كالجص والطين واللبن والصوف وغيرها ليس لغرض الترهد وعدم التبذير وإنما لشعور الفنان بأن كل شيء في هذا العالم وخاصة ما تنتجه يده من صناعة ما هو إلاّ الزوال.

وكان لإنكار العلاقة السببية للامور الدنيوية أثر كبير ليس فقط في العقائد الدينية حسب وانما في الناحية الفنية أيضاً. فقد حصلنا بدلاً من الظواهر الطبيعية على اعتبارات

عادية للأشياء نتيجة خلق مجموعة أشكال كونية تشكون وظائفها بصورة ما ، وعدتها الذرة الزمنية ، فقطعت الزخارف شطراً فرضياً الى وحدات صغيرة ورتبت بحرية مكنت الفنان من تغييرها أو رسمها رسماً معكوساً .

ولا توجد ثمة علاقة بين هذه الجزئيات والمنظر العام الذي شعرت منه كما هو واضح في سجادة تتويج ملك في القرن(١٦) فكل جزء منها مستقل عن الآخر وتظهر هذه الصفة بطريقة في الجرة ذات البريق المعدني التي في مجموعة الدكتور هرش أو انتشار الموصل المعدني المشهور في مجموعة بلاكاس في المتحف البريطاني حيث لا توجد علاقة مباشرة بين كل منها ووحداته الزخرفية الصغيرة . ويناظر هذا الانفراد الذري اتجاه آخر صفاته في الأدب من مقامات الحريري حيث لا ترتبط كل مقامة بالأخرى في المعنى — ولقد تعددت هذه المقامات التي تبلغ الخمسين ومن الممكن زيادتها — وعلاوة على ذلك لا يوجد لكل مقامة مكان خاص في الكتاب وإنما ترتبط بينها شخصيات أبو زيد والحارث بن همام ، كما ان الملك في جرة بلكاس هو الحلقة الرابطة في الصورة التي عليها .

وقد أسفر التحليل الدقيق لخصائص الفن الاسلامي على اختلافه عن طرق أمكن بها التغلب على الصعوبات التي واجهتها . فرسمت جميع الأشكال رغم تحريمها . ومع ذلك بقي سؤال واحد هو هل لم تتبق ظاهرة فنية واحدة استحدثت لم يشملها التحريم؟ تقودنا الاجابة على ذلك الى شكل آخر له صفات ومميزات ايجابية ويمكن تسميته في الفن الاسلامي « الطرز المختلفة للكتابة العربية » وقد استخدمت هذه الظاهرة الفنية لكتابة القرءة التي يحتلها القرآن الشريف وهو النسخة العربية من الكتاب السماوي وهو معبر الوحي ، وقوله لا يتقلد وهو أزلي غير مخلوق . واستخدام آيات منه كبيرة أو صغيرة داخل المساجد أو بعض المباني المختارة أو على بعض قطع كبيرة احتل نفس المكانة التي كانت تستخدم فيها بعض النصوص القديمة المقدسة وخاصة فيما يتعلق بحياة المسيح في العالم المسيحي . وهو زي ما في الاسلام من تجديد ووحدة ما في المسيحية من تعدد واختلاف الوحدات .

وتظهر الكتابة العربية كنوع من الزخرفة الاسلامية في أروع المباني الأثرية وأعظمها

فقام الفنانون الأمويون بتكرار بعض الخروف الهجائية بقصد الزخرفة على النوع الثاني — أما النوع الأول فإننا نجده ممثلاً في مسجد أو مدرسة سلجوقية حيث كتب الخط الكوفي الكبير الحجم على طول الجدران الأربعة الداخلية أسفل منطقة الانتقال من المربع الى القبة كما تفصل بين الأدوار الزخرفية والمعمارية المتنوعة في كل من النصف السفلي والعلوي من المربع والقبة. ويمتد هذا الخط على الأبنية الفاطمية كواجهة جامع الأقمر حيث يحيط شريط الكتابة الكوفية المحاريب المعمارية التي تملأ واجهة المسجد وفي كلا النوعين يُمضى شريط الكتابة على المباني وحدة واعتدالاً بصفة عامة.

ومن الواضح أن الكتابة العربية خير ما يناسب المحاريب من الزخرفة على أن يراعى عند تغطية هذا الجزء المقدس بتربيعات القاشاني ذات البريق المعدني أن تكون الكتابة الكوفية زرقاء قاتمة وبارزة حتى تظهر واضحة على هذه الأرضية ذات الزخارف والبريق المعدني فلا يتغير شكلها، وفي هذه الحالة يجب أن يظهر لفظ الجلالة كما يجب أن يحافظ على شكله من تداخل بعض العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والارابسك على توائمه حتى لا تطغى عليه فتقلل من وضوحه، وتعذر منذ عهد الميروفنجيين Merovingian استعمال الكتابة بأشكالها الآدمية والحيوانية في الغرب وخاصة على المعادن.

وتفسر الصورة الانسانية على أنها تقليد للخط العربي، فأوضح محمد الهيتمي في كتابه «هداية المحبين» أن الله خلق الانسان شبيهاً باسم محمد بالخط الكوفي فخلق الله آدم وشبهه بحروف من إسمه فالرأس كالميم واليدين كالحاء والبطن بالميم الثانية والقدمين بالدال.

وتبعاً لاتساع رقعة البلاد الاسلامية كان من الطبيعي أن تكون لبعض هذه الممالك مميزات وطابع اسلامي فني خاص وخاصة بعد الحركة الانفصالية التي أعقبت تقسيم الخلافة العباسية الى وحدات صغيرة.

تحررت فارس من القرن ١٣ الى ١٦ وبرزت في فنها محاولة خطية صوفية في صورها المتنوعة، وليس أدل على ذلك من توضيح المنظومات الخمس لنظامي بالصور ورسم الأفراد والأميرات وحولهم الأتباع في مناظر طبيعية ساحرة ومواقف جيلة رائعة وتبدو خاصة في الصورة في عالم سحري ممزول تتقدمه جدول ماء والى الخلف منهم منظر جبلي وفي

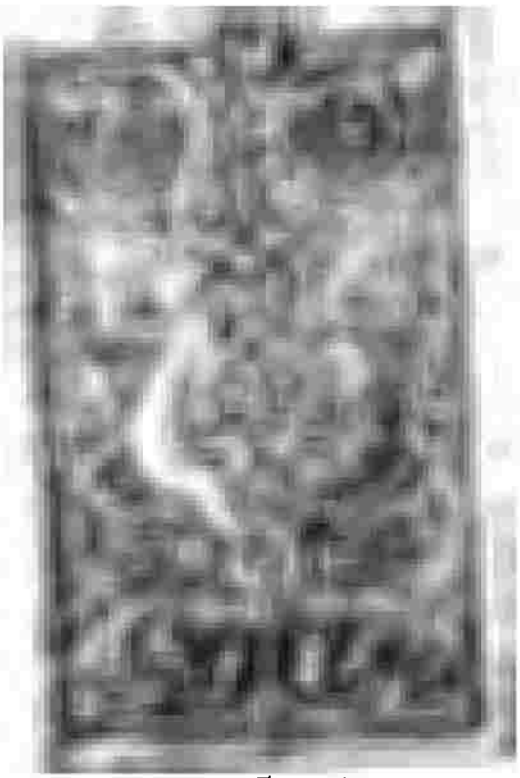

ش ١ — حشوة خشبية بدار الآثار العربية من العصر الفاطمي
تاريخها القرن التاسع

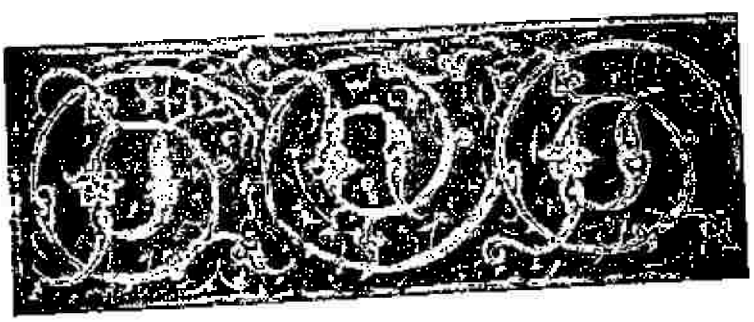

ش ٢ — فروع نباتية ملتوية وأوراق نباتية تعرف بالأرابسك

المحاولات التي تحاول منها الانطلاق من القيود السابقة وجد سعادة كبيرة تملأ مشاعرها لجنة وحوريتها بين فجيرات خضراء جميلة وحدائق من زهور منثورة في الصحراء. وتختلف هذه المناظر عما نجده في مصر. ففي العصر الأيوبي والمملوكي اكتمل نمو الفن والصناعة التي تمثل مظاهر الحياة الإسلامية والروحية والسياسية فتعد المدرسة أهم المباني الأثرية في هذا العصر ويشغل أهم جزء فيها ضريح السلطان الذي أنشأها قبل موته واستعملت في زخرفته مواد أكثر سلاسة كالرخام بدلاً من الجص الذي كان شائعاً في إيران. وأهملت صناعة القطار في هذا العصر لاستعمال الفيروز للمكان بدله. وإذا استعمل الطوب فانما لعمل النوع الأسود تقليداً للأواني المعدنية المحفورة. وتبرز الوحدات الهندسية والمتعددة الأضلاع في الزخرفة وتحل محل الطرز النباتية الإيرانية الرشيقة الملائمة للحياة التي كانت سائدة هناك.

هذا الاختلاف الإقليمي بين الشعوب يدل على اختلاف وجهات النظر الإسلامية في كل منها، ومهما كان هذا الاختلاف بين هذه الأقاليم فانه يسود الجميع طابع إسلامي عام دائم لا يتغير.

ولم يؤثر احتكاك العالم الإسلامي بأوربا في المظهر الأساسي للفن الإسلامي إلا نادراً جداً وإن أي تغيير في المظاهر الأساسية للإسلام كما حدث عند ترجمة القرآن إلى لغات غير عربية وحروف غير حروفه المنزلة وجه الفن إلى محاكاة الطبيعة وأدخل التصوير في المساجد وعلى صناديق الأقلام وغيرها وابتعد الفن الإسلامي عن أصوله التي نشأت معه وأصابته بصبغة جديدة خطيرة.

محمد مهدي البيطار
دبلوم في الآثار الإسلامية

---

* استدراك — جاء في منتطف شهر مارس ١٩٤٨ في مقال خصائص الفن الإسلامي

الصفحة	السطر	ما صححه
١٨٩	٥	بلغة كالزّ
»	٩	خارزة
٢٩١	٤	أن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله
١٩١	١٥	أصبح
١٩٢	٦٠	تكررت الكلمات الآتية : عن حفل عرض صور وتصميمات الكتب المقدسة الإسلامية)
١٩٢	١٣	الفن
١٩٣	٩	بيرونسك